القمر (١)

لمصطفى صادق الرافعي

إني لأراك أيها القمرُ منذُ عَقَلتُ معانيَ ما أرى، ولكني لم أعرف أنك أنت كما انت إلا بعد أن وضع الحبُّ فيما بينك وبين قلبي وجهَ من اهواها كما يوضع التفسيرُ الى جانب كلمة دقيقة

عندئذٍ وصلتك قرابةُ الجمال بوجهها فاتصل بك شعوري ، وبتُّ على بُعدك في أفلاك السماء تسبحُ ايضاً في دائرة قلبي ، واستويتَ مُتَّسِقاً كأن عملك لي أن تتمّم فنَّ جمالها باظهارها أجملَ منك ، وامسيتَ عندي ولك مثلَها شكلُ السرّ المبهم المحيطِ بالنفس المعشوقة ، يدخلُ كلُّ جمالٍ في تفسيره ولا يكملُ تفسيره أبداً

ومن شَبَهكَ بوجهها أزهر الضوءُ فيك ما يُزهر اللحمُ والدم فيها فتكاد أشعتك تُقْطَفُ منها القُبلة . ويكاد جوُّك يَسَّاقَطُ من نواحيهِ تنهُّداتٍ خافتة. وتكاد تكونُ مثلَها يا قمرُ مخلوقاً من الزهر والندى وأنفاس الفجر

* * *

أما قبلَ حبها فكنتُ أراك أيها القمرُ بنظرات لا تحملُ افكارا

كنتَ جميلاً ولكن جمالَ ورق الزهر الابيض . وكنتَ في رُقْعتك المضيئة تشبه النهارَ مطويًّا بعضهُ على بعض حتى يرجعَ في قَدْر المنديل. وكنت ساطعاً

---

(١) هذه رسالة بل آية في البلاغة من كتاب (اوراق الورد) الذي وضعه الاستاذ مصطفى صادق الرافعي ليكمل به كتابيه التهيرين : رسائل الاحزان والسحاب الاحمر في فلسفة الجمال والحب . وقد تم وقدم للطبع وهو اربعون رسالة نشرنا منها ثلاثاً في السنة الماضية : الابتسامة والجاذبية والنضي. ويقول لنا الاستاذ الرافعي ان اللغة العربية في كل تاريخها ليس فيها رسالة واحدة ذات قيمة في هذا الباب وان ابن قتيبة أورد في كتابه عيون الاخبار رسالة كتبتها منية الى صاحبها قابوس وجواب قابوس عليها وهما كالخطب المنبرية في الوعظ . . . .

في هذه الزرقاء ولكن سطوعَ المصباح الكهربائي على منارة قائمة في ماء البحر . وكنتَ زينةَ السماء ولكن كما تُناط مرآة صغيرة من البلّور الى حائط فتُشبه من صفائها موجةَ ضوء أُمسِكت ووضعتْ في إطار معلق

وكنت يا قمر . . . كنتَ ملء الوجود ولكنك ضائعٌ من فكري

* * *

وأما بعد حبها فأمسيتُ أراك أيها القمر ولستَ الا طابعَ الله على أسرار الليل في صورة وجه فانٍ كما أن كل وجهٍ معشوقٍ هو طابعُ الله على أسرار قلب .

فانت جميل جمالَ الجسم البَضِّ العارى ، تكاد تشبه صدرَ الحبيبة كشفتْ اعلاه فظهر في بَرِيق الفضة المجلوّة

وانت فانٍ تحاكي في ضوئك وجهها لولا انك بلا تعبير

وانت ساطعٌ بين النجوم لو تجسّمتْ صورةٌ من اجمل ضحكات ثغرِ معشوقٍ لكانتك ، ولو تجسمت القُبُلاتُ المنتثرةُ حول هذا الثغر لكانتْها

وانت زينةُ السماء ولكن السماء منك كمرآةٍ سحرية اطّلعتْ فيها حُوريّةٌ من حُور الجنة فأمسكتْ خيالَ وجهها في لجّةٍ من النور

وانت ياقمر . . . أنت ملءُ الوجود ولكنك أيضاً ملءُ فن الحب

***

أتذكر أيها القمر إذ طلعتَ لنا في تلك الحديقة . . . وتَفَيَّأتَ بنورك عليها فغمرتَ أرضَها وسماءها بروح الخُلْدِ حتى وقع في وهمنا أنك وصلتَها من سحر أشعتك بطَرَف من أطراف الجنة !

أتذكر وقد رأيتك ثَمّةَ قريباً من الحبيبة تصبُّ عليها النور حتى خُيّل اليّ أنها إحدى الحور العين متكئة في جَنّتها على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وقد وقف لخدمتها قمر؟

أتذكر وقد لمستَ فكري بضوئك لمسةَ نور فأظهرتَها لي كأنها في جمالها الطاهر شكلٌ ديني وُضع ليكون مثالاً لعبادة القلب الإنساني ؟

أتذكر إذ نزلتَ علينا بآيات سحرك فخيّلتَ لي ان العالم قد تحوّلَ فيها هي الى صورة جميلة مَرْئيّة أمست لي وحدي ، فملكتُ العالم كلّه في ساعة من حيث لم أملك الاّ الحب ؟

أتذكر ساعةَ جئتنا بها من فوق الزمن وكان فيها للحديقة جوٌّ من زهر وجو من قمر وجوٌّ من امرأة أجمل من القمر والزهر ؟

***

أترى ياقلبي كأن في الوجود الذي حولنا أنوثةً وذكورة ، فهو بالقمر تحت الليل يعبّر عن نفسه تعبيراً نسائيًّا في منتهى الرقة لانهُ قوي شديد ، وفي غاية التفتُّر لأنه مشبوبٌ مُتَضَرِّم ، وفي كمال الدلال لانهُ في كمال الاغراء ، وفي اقصى الحياء لانه يبعث بهذا الحياء فيما حوله أقصى الجُرْءة ؟ تعبير امرأة معشوقة جميلة ترِفُّ بأندائها وليس فيها الاّ صفاتُ النور ، وبالشمس على النهار يعبّر الوجودُ عن نفسه تعبيرَ رجُل مقدام ليس فيهِ غيرُ القوة والحركة والاندفاع . تعبير رجل جبّار يحمل عزائمه التي يحترقُ بها وليس فيهِ الاّ صفات النار ؟

أترى ياقلبي كأن مَدَنيَّةَ الحياة في النهار بصراعها وهمومها تحتاج الى قَفْرٍ طبيعي يفرُّ اليهِ اهلُ القلوب الرقيقة بضع ساعات . فلذلك يخلق لهم القمرُ صحراء واسعة من الضوء يجدون فيها بعد تلك الماديَّةِ روحانيةَ الكون ورَوْحَ العزلة وسكينةَ الضمير ويبدو فيها كلُّ ما يقع عليهِ النور كأنه حيٌّ ساكنٌ يفكر ؟

أترى ياقلبي كأن ضوء القمر صُنِع صنعةً بخصائصها ليبعث في القلوب معانيَ القلوب الروحية من الفكر والحب ، كما صُنع نورُ الشمس ليبعث في الاجسام قواها ومعانيها الماديَّة من الحياة والدم ؟

أترى يا قلبي كأن هذا القمر انما يلقي النورَ على الحلم الروحاني اللذيذ الغامضِ الذي يحلم بهِ كل عاشق من اول درس في الحب ساعةَ ترسل الحبيبةُ الى قلبهِ رسالة عينيها . ولا يحلم بمثله في غير العشاق الاّ أعظمُ الفلاسفة ، وفي آخر دروس فلسفتهِ وبعد ان تكون الليالي الطويلة قد أطلمت في سماءِ عُمره قمرَ الشيخوخة من شعره الابيض

أترى يا قلبي كأن هذا القمر في الحب (تلسكوب) يُكبّرُ نورُه العواطفَ حين تبحثُ في ضوئهِ فلا يطلع على حبيبين الاّ كبّر احدهما في عين الآخر

أترى يا قلبي أنهُ وليس في الحب الاّ عواطف مُكبِّرة ينيرها دائماً وجه الحبيب فلا بدَّ ان يكون وجهُ الحبيب طالعةً فيهِ دائماً روحُ القمر ؟

أترى يا قلبي . . . ؟ آه أترى ؟

طنطا (طبق الاصل)